كان المضلنا دليل على افراط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوتهم
وبذل له قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم وعرض الايات
والمعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم ان يتركوا دينهم الى دين الاسلام
لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم ولولا في مثل هذا الكلام
جار من حيث المعنى لا من حيث الصفة مجرى التقييد للحكم المطلق وسوف
يعلمون وعيد ودلالة على انهم لا يفوتونه من اضل سبيلا وان كانت
مدة الامهال والابطاء بان الحق يعقبهم العذاب الماحق وقوله
من اضل سبيلا كالجواب عن قولهم ان كاد ليضلنا لانه نسبة لرسول الله
صلى الله عليه وسلم الى الضلال من حيث لا يضل غيره الا من هو ضال
في نفسه ويروى انه من قول ابي جهل لعنه الله من كان في طاعة
الهوى في دينه يتبعه في كل باب ويدور او بصدد ليلا ولا يصغي الى برهان
فهو عابد هواه وجاعله الهه فيقول لرسوله هذا الذي لا يرى
معبودا الا هواه كيف تستطيع ان تدعوه الى الهدى اتتوكل عليه
وتجبره على الاسلام وتقول لا بد ان تسلم شئت او ابيت ولا اكراه
في الدين وهذا كقوله وما انت عليهم بجبار لست عليهم بمصيطر ويروى
ان الرجل منهم كان يعبد الحجر فاذا راى احسن منه رمى به واخذ
آخر ومنهم الحرث بن قيس السهمي ام هذه منقطعة معناه بل اتحسب
كان هذه المذمة اشد من التي قبلها حتى حقت بالاضراب عنها
اليها وهي كونهم مسلوبي الاسماع والعقول لانهم لا يلقون
الى استماع الحق اذنا ولا الى تدبره عقلا وشبههم بالانعام التي
هي مثل في الغفلة والضلالة بل ارجح ضلالة منها فان قلت
لم اخر هواه والاصل قولك اتخذ الهوى الها قلت
ما هو مقدم والتسليم المفعول الثاني على الاول للعناية كما تقول علمت منطلقا

١٣٢

زيدا لفضل عنايتك بالمنطلق فان قلت ما معنى ذكر
الاكثر قلت كان فيهم من لم يصده عن الاسلام
الا داء حب الرياسة وكفى به داء عضالا فان قلت
كيف جعلوا اضل من الانعام قلت لان الانعام تنقاد لاربابها ٤٠
التي تعلفها وتعهدها وتعرف من يحسن اليها ممن يسيء اليها وتطلب ما ينفعها
وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون
لربهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا
يطلبون الثواب الذي هو اعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو
اشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني
والعذب الروي ألم تر الى ربك الم تنظر الى صنع ربك وقدرته
ومعنى مد الظل ان جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس ولو شاء
لجعله ساكنا اي لاصقا باصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة غير منبسط
فلم ينتفع به احد سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم
ذلك سكونا ومعنى كون الشمس دليلا ان الناس يستدلون بالشمس
وباحوالها في مسيرها على احوال الظل من كونه ثابتا في مكان وزائلا
ومتسعا ومتقلصا فيبنون حاجتهم الى الظل واستغناءهم عنه على
حسب ذلك وقبضه اليه انه ينسخه بضح الشمس يسيرا اي على مهل
وفي هذا القبض اليسير شيئا بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر
ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت اكثر مرافق الناس بالظل والشمس
جميعا فان قلت ثم في هذين الموضعين كيف موقعها قلت
لبيان تفاضل الامور الثلاثة كان الثاني اعظم من الاول والثالث
اعظم منهما تشبيها لتباعد ما بينها في الفضل بتباعد ما بين
الحوادث في الوقت ووجه اخر وهو انه مد الظل حين بنى السماء كالقبة

Copyright © King Saud University